الشعيرة الثانية

البكاء

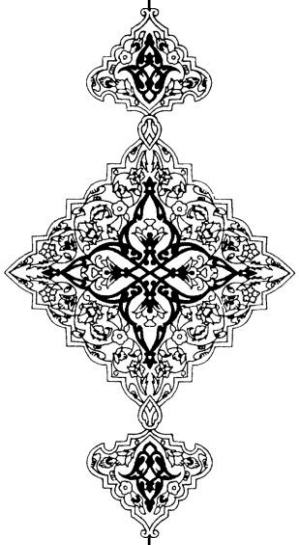

البكاء

البكاء حالةٌ تبلغها النفس البشريّة حين يبلغ بها التأثّرُ درجةً أعلى من أن يَفِيَ بها القولُ، فيفيض الدّمعُ ليؤدّي ما لا يؤدّيه القول ليُطلِق الشّحنة العاطفيّة الحبيسة من التأثّر العميق العنيف، والبكاء عنوان النفس الصّادقة، وترجمان الشعور الرّاقي، ورشحة الروح الرقيقة، والحقيقة التي ترقى على الرّياء والتصنّع.

القَولُ يكذبُ تارةً وَ يخونُ لكنَّ دمعيَ صادقٌ مأمونُ

ولا يمكن لعاقلٍ أن يذمّ بكاء الحزن أو ينهى عنه، لأنّه أمر غير اختياري أصلاً، كما أنّ بكاء الفرح كذلك، وذكر ابن حجر من فوائد الحديث: أنّ البكاء الذي يجلبه الحزن غيرُ مذمومٍ، وأنّ المرء قد لا يملك دمعَه إذا غلب عليه الغيظ، وفيه ما رُكِّب في الإنسان من الأسف؛ على فَوْت ما فيه نفعُهُ وما يحتاج إليه[1].

ولم يختلف العرب عن غيرهم من بني الإنسان في لوازم الإنسانيّة وطبائعها، بل ويمكننا القول بأنّهم زادوا على غيرهم بفيض الوجدان وحنين الشعراء ولواعج الرّثاء، فهرعوا إلى البكاء تعبيراً عن مشاعرهم عند فقْدانِ الأحبّة والخِلاّن ومُفارَقة الأوطانِ أو تذكّرِ سالفِ الأزمانِ..

---

(١) راجع فتح الباري (٦/٣٢١).

قال امرؤ القيس:

قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ
وإنّ شفائي عَبْرَةٌ لو سفحتُها وهل عند رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ
كأنّي غداةَ البَيْنِ يومَ تحمّلوا لدى سَمُراتِ الحيِّ ناقفُ حَنْظَلِ
ففاضتْ دموعُ العينِ مِنّي صَبابَةً على النّحر حتى بلّ دمعيَ محمَلي[1]

والبكاءُ تعبيرٌ إنساني نبيلٌ، يُفصح عن شعورٍ أصيلٍ، يحبّ الإنسان إبداءه، فقد ذُكر أنّه دخل المنصور قصراً فرأى في جداره مكتوباً:

وما ليَ لا أبكي بعينٍ حزينةٍ وقد قُرِّبتْ للظاعنينَ حمولُ

وتحته مكتوبٌ: " إيه إيه ". فقال المنصور: " أيّ شيءٍ إيه إيه ؟ فقال له الربيع: إنه لّما كتب البَيْتَ؛ أحبّ أن يُخبِر أنه يبكي. فقال له: قاتله اللهَ، ما كان أظرفَه. فكان هذا أول ما ارتفع به الربيع[2].

وهو تعبير طبيعي يضطر إليه الإنسان بطبعه، ويُغنيه في بعض المواطن عن بسط وصف شعوره الكامن في باطن نفسه، وقد نظم القُشَيري في هذا المعنى فقال:

لو كنتَ ساعةَ بيْننا ما بَيْنَنا وشهدتَ كيف نُكَرِّرُ التوديعا
أيقنتَ أنّ من الدّموع محدِّثاً وعلمتَ أنّ من الحديث دُموعا[3]

---

(١) راجع جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص (١١٧) بتحقيق علي محمد البجاوي، وقال أبو زيد: الناقف: الذي يشقّ الحنظل؛ فتدمع عينه من مرارته، والصبابة: رقّة الشوق.

(٢) راجع جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص (١٩٠) بتحقيق علي محمد البجاوي.

(٣) راجع طبقات الشافعيّة الكبرى للسبكي (١٦١/٥)، وذكر ابن خلّكان في الوفيّات أنّ البيتين

ويبكي الإنسان لأغراض تقتضي ذلك، ويعكس بالدّمع شيمته ونفسه ومعالي شأنه وسموّ غاياته، أو عكس ذلك، فقد يذرف دموعه وفاءً مثلاً، وقال الأصمعي: إذا أردتَ أن تعرف وفاءَ الرجل ووفاءَ عهده، فانظر إلى حنينِه إلى أوطانه، وتشوّقِه إلى إخوانِه، وبكائِهِ على ما مضى من زمانِه[1].

وذكروا أنّ متمّم بن نُوَيْرَة - أخا مالك الذي قتله خالد بن الوليد - كان لا يمرّ بقبرٍ ولا يُذكَرُ الموتُ بحضرته إلاّ قال: يا مالك، ثم فاضتْ عَبْرتُه، وفي ذلك يقول:

وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَه ... لقبرٍ ثوى بين اللّوى فالدّكادكِ
فقلتُ لهم إنّ الأسى يبعث البكا ... ذَرُوني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ[2]

وقد يذرف دموعه شوقاً وحنيناً، فالبكاء بريد العشاقِ ورسول الأشواق، وما أحسن قول علي بن أفلحَ في هذا الباب:

هذه الخيفُ وهاتيك مِنى ... فترفَّقْ أيها الحادي بنا
واحبسِ الرّكبَ علينا ساعةً ... نندب الرَّبْعَ ونبكي الدِّمَنا
فَلِذا الموقفِ أعددنا البُكا ... ولِذا اليومِ دُموعٌ تُقتَنَى
زمَناً كان وكنّا جِيرَةً ... يا أعادَ اللهُ ذاك الزَّمَنا[3]

→

لذي القرنين بن حمدان، وكان القشيري يتمثّلهما، وقال: كان أبو القاسم القشيري كثيراً ما يُنشد لبعضهم. وفيّات الأعيان (٣/٢٠٧).

(١) راجع المجموع المنتخَب من المواعظ والأدب ص (٢٣٦).

(٢) راجع الزهرة لابن أبي داود (٢/٥٣٩).

(٣) راجع مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، لابن الجوزي ص (١٢٩).

وقال المتنبّي:

لا تَعْـذلِ المشـتاقَ في أشـواقِهِ حتـى يكـون حَشـاكَ مـن أحشـائِهِ
إنّ القتيـلَ مضـرَّجاً بدموعِـهِ مثـلُ القتيـلِ مضـرَّجاً بدمائِـه[١]

وقد يذرف دموعه حُزناً وشكاية، أو فرحاً وسروراً، كما حكى القرآن الكريم حالة المؤمنين الذين تفيض عيونهم بالدّمع تلهّفاً إلى نعيم الله تعالى، وبهجة من عندهم لانكشاف الحق، وفي ذلك يقول تعالى في كتابه: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾.

وقد يذرف دموعه مكراً وخداعاً وتصنّعاً، كما نقل القرآن الكريم في قصّة يوسف عليه السلام، إذ قال في خصوص أخوته: ﴿**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**﴾ وهو بكاءٌ مذموم، وقيل إن الدّمع المصنوع لا يخفى، وقيل:

إذا اشـتبكتْ دمـوعٌ في خُـدودٍ تَبَـيَّنَ مَـنْ بَكَـى مِمَّـنْ تَبَـاكَى

وقد يذرف دموعه بين يدي ربّه الكريم، إنابة إليه وأوبة إلى رحمته، وخوفاً من شديد نكاله، ولقد كان بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذرفون الدّموع بين يديه حين يعظهم، وهذا البكاء ثمرةُ العلمِ النافع، وقد قال سبحانه فيهم: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا**﴾.

وقد يذرف دموعه ندماً على ما فرّط في جنب الله تعالى، وفي هذا المعنى شطّر الصنعاني أبيات المتنبي فأحسن:

---

(١) راجع ديوان المتنبي (١/٦).

القلبُ أعلمُ يا عذولُ بدائهِ ... ما غيرُ داءِ الذنبِ من أَدْوائِهِ
والذنبُ أَوْلَى ما بكاه أخو التُّقى ... وأحقُّ منكَ بدمعِهِ وبمائِهِ
مَن ذا يلوم أخا الذنوبِ إذا بكى ... إنّ الملامةَ فيه مِن أعْدائِهِ

وقد يذرف دموعه تحسّراً على فوات الخير، كما وصف الله تعالى بعض أصحاب نبيّه ﷺ فقال: ﴿**إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ فإنّ بكاءهم تحسّراً لما فاتهم من الجهاد والخير.

ومن هذا الباب بكاء ابن عباس رضي الله عنه تحسُّراً على وصيّة النبي ﷺ فقد روى عنه ابن المسيّب أنه قال: يوم الخميس، وما أدراك ما يوم الخميس، ثم بكى حتى خضب دمعُهُ الحصباءَ، وقال: لما حُضِر رسول الله ﷺ وفي البيت رجالٌ، فقال النبي ﷺ: هلمُّوا أكتبْ لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، فقال بعضهم: إنّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتبْ لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: قوموا(١).

قال عبيد الله بن عبد الله: فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلَّ الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين كتابه(٢).

---

(١) راجع لهذا اللفظ كتاب المغازي من فتح الباري (٨/٤٧٧).

(٢) راجع لهذا اللفظ كتاب العلم من فتح الباري (١/٢٨١).

وقد يذرف دموعه بدافع إنساني محض، كما يبكي رحمة وشفقة على ما يقتضي ذلك، ورُوي في الصحيحين حديث أسامة بن زيد، ومفاده أنّ رسول الله ﷺ رُفِع إليه ابنُ ابنتِه وهو في الموت، ففاضتْ عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله ؟ قال: هذه رحمةٌ جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء..

ومن ذلك بكاء التعزية، مثل قول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثلَ أخي! ولكنْ ... أعزّي النفسَ عنه بالتأسّي[1]

ومن ذلك بكاء الحزن على ذهاب الأخيار، وقد عنون بعض أهل الحديث أبواباً في كتبهم بذهاب الصّالحين، ففي البخاري عن أنس بن مالك: أنّ النبي ﷺ نعى جعفراً وزيداً قبل أن يجيء خبرُهم، وعيناه تذرفان[2].

وبكت مولاتنا فاطمة عليها السلام حينما أخبرها النبي ﷺ بقُرب أجله، فقد قالت عائشة: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه الذي قُبض فيه، فسارّها بشيءٍ فبكتْ، ثم دعاها فسارّها بشيءٍ فضحكتْ، فسألنا عن ذلك، فقالت: سارّني النبي ﷺ أنّه يُقبض في وجعه الذي تُوُفّي فيه فبكيتُ، ثم سارّني فأخبرني أنّي أوّل أهله يتبعه فضحكتُ[3].

---

(١) راجع الزهرة لابن داود (٢/٥٨٤).

(٢) راجع فتح الباري ٧/٣٣٨. وسيأتي الخبر قريباً مع مصادره الأخرى، وإنّما قدّمناه وغيره لمحلّ الشّاهد.

(٣) راجع فتح الباري (٨/٤٨١).

ومن ذلك بكاء الوفاء للعظماء.. ومرّ في مقدّمة كتابنا خبر مرور النبي ﷺ بنساء عبد الأشهل وهنّ يبكين هَلْكَاهُنّ يومَ أُحُد، وقوله ﷺ: لكنّ حمزةَ لا بواكيَ له، ومجيء نساء الأنصار يبكين حمزة.

وقد قال مالك بن الرّيب في يائيّته المشهورة:

تذكّرتُ من يبكي عليَّ فلم أجِدْ ... سوى السيف والرمح الرّدينيِّ باكيا
وبالرّمل منّا نسوةٌ لو شهدنني ... بَكَيْنَ وفدّيْن الطبيبَ المداويا
فمنهنّ أمّي وابنتاي وخالتي ... وباكيةٌ أخرى تهيج البواكيا[1]

تشريع البكاء

نُقدّم إلمامة خاطفة نتعرّف فيها على نظرة الإسلام في البكاء على الميت، إذ قد يتوقّف البعض في تشريعه وقد يحرّمه بعضٌ آخر، وللنّاس أن يحلّلوا ويحرّموا على أنفسهم كما يشتهون، غير أنّه ليس لهم أن ينسبوا ذلك إلى الدين وإلى شريعة سيّد المرسلين ﷺ، وللقاريء الكريم أن يحكم بحكمه بعد أن وقوفه على أحاديث بكاء النّبي ﷺ على الإمام الحسين عليه السلام في كتابنا " الدّمعة السّاكبة " وذلك قبل مقتله لخصوصية القضيّة، وسنورد ما يثبت بكاءه ﷺ على الأموات عموماً.

فالبكاء تعبير إنساني طبيعي للحزن، نابع من الذّات، لا يتحكّم فيه أبداً، وهو انعكاس توجّع داخلي، وغدّة الدّمع موجودة عند الإنسان وبعض الحيوانات الأخرى.. ويعرف الباكي تماماً أنّه لا يعيد ببكائه الميّت الذي فقده، ولا يستردّ بدموعه حتّى بعضه، لكنّه يعكس حزنه لا إراديّاً بالبكاء، يتنفّس من خلاله

(١) راجع جمهرة أشعار العرب ص (١٤٣).

ويروّح عن روحه الواجدة، ويخفّف عن نفسه به، ويزيح ثقل الكبت والوجوم والحبس النّفسي بذرف عبراته.

ولستُ أهتدي إلى سّر حساسيّة بعض النّاس من البكاء عموماً، مع ورود فعل النّبي ﷺ والصّحابة الكرام، خصوصاً وأنّا نفترض خلوّه من الجزع المُخل بالإيمان، بل مع اشتماله على القصود والأهداف السّامية، من الإعتبار والتفاعل مع المكارم والفضائل، ومع أنّ الأحاديث الواردة في بكاء النّبي ﷺ على المتوفّى وحثّه على ذلك كثيرة جدّاً، وقد ذكرنا طائفة كثيرة في كتابنا هذا، وسنورد هنا بعضها.

❖ بكاؤه ﷺ عند وفاة إبنه إبراهيم:

في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وابن ماجه واللفظ للأول، قال أنس: دخلنا مع رسول الله ﷺ وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله ؟!

فقال ﷺ: إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1].

❖ بكاؤه ﷺ على قبر أمّه:

في صحيح مسلم ومسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة واللفظ

---

(١) راجع صحيح مسلم (٤٠٨) كتاب الفضائل، باب رحمته بالصبيان والعيال ح (٢)، وسنن أبي داود (١٩٣/٣) كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، وسنن ابن ماجة (٥٠٧/١) كتاب الجنائز، باب (٥٣) ح (١٥٨٩)، والبخاري (١٥٨/١) كتاب الجنائز، باب قول النّبي ﷺ: وإنا بك لمحزونون. ورياض الصالحين ص (٣٦٣-٣٦٤).

للأوّل، عن أبي هريرة، قال: زار النّبي ﷺ قبر أمّه فبكى وأبكى من حوله[١].

❖ بكاؤه ﷺ شهداء مؤتة:

في صحيح البخاري: أن النّبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم.

وقال ﷺ: أخذ الرّاية زيد، فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان[٢].

❖ بكاؤه ﷺ عمّه الحمزة:

في طبقات ابن سعد ومغازي الواقدي ومسند أحمد وغيرها واللفظ للأول: أنّه لما سمع رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد البكاء من دور الأنصار على قتلاهم، ذرّفت عينا رسول الله ﷺ وبكى، وقال: لكن، حمزة لا بواكي له.

فسمع ذلك سعد بن معاذ، فرجع إلى نساء بني عبد الأشهل فساقهن فدعا لهن وردّهن، فلم تبك امرأة من الأنصار بعد ذلك إلى اليوم على ميت إلاّ بدأت بالبكاء على حمزة، ثم بكت على ميّتها[٣].

---

(١) راجع صحيح مسلم (٦٧١/٢) كتاب الجنائز، باب (٣٦) ح (١٠٨)، ومسند أحمد (٤٤١/٢)، وسنن أبي داوود (٣/ ٢١٨) كتاب الجنائز باب زيارة القبور ح (٣٢٣٤)، وسنن النسائي (٩٠/٤) كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر المشرك، وسنن ابن ماجة (٥٠١/١) كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين ح (١٥٧٢).

(٢) راجع صحيح البخاري (٢٠٤/٢) كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب خالد، والبداية والنهاية لابن كثير (٢٥٥/٤)، والسنن الكبرى للبيهقي (٧٠/٤)، وأنساب الأشراف (٤٣/٢)، وشرح ابن أبي الحديد (٧٣/١٥).

(٣) راجع ترجمة حمزة في طبقات ابن سعد (١١/٣) طبعة صادر، وأكثر تفصيلاً منه في مغازي

❖ بكاؤه ﷺ سبطه:

جاء في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن النسائي واللفظ للأول: أن إبنة النّبي ﷺ أرسلت إليه: أن ابناً لي قبض فأتِنا فقام ومعه سعد بن عبادة ورجال من أصحابه، فرُفع إلى رسول الله ﷺ ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا !!

فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرّحماء[1].

فهذه مجموعة تمثّل بعض الأحاديث المروية عن سيد البشر ﷺ وتؤكّد جواز البكاء، بل هي تدلّ على استحبابه في بعض المواطن، نصّت على فعله ﷺ وتقريره وأمره بالبكاء، خلافاً لمن روى أحاديث في تحريمه والنّهي عنه على الميّت، فإنّها أحاديث متهافتة، لا تصمد أمام معول النّقد، مضافاً لتعارضها مع الأدلّة الكثيرة في مقابلها، وهي تدلّ على رجحان البكاء على الميت.

→

الواقدي (١/٣١٥ - ٣١٧)، وإمتاع الأسماع (١/١٦٣)، ومسند أحمد (٢/٤٠)، وتاريخ الطبري (٢/٥٣٢) ط مصر، وسيرة ابن هشام (٣/٥٠)، وأورده ابن عبد البر بايجاز ضمن ترجمة حمزة من الإستيعاب، وأورده ابن الأثير باختصار أيضاً بترجمته من أسد الغابة.

(١) راجع صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النّبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، واللفظ له، وكتاب المرضى، باب عيادة الصبيان (٤/٣) وفي (٤/١٩١)، وكتاب التوحيد، باب أن رحمة الله قريب من المحسنين، وفي صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٢/٦٣٦) ح (١١)، وفي سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٣/١٩٣) ح (٣١٢٥)، وفي سنن النسائي (٤/٢٢) كتاب الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر، ومسند أحمد (٥/٢٠٤ و ٢٠٦ و ٢٠٧).

البكاء على الحسين عليه السلام

عرفتَ أنّ البكاء على الميّت أمرٌ راجحٌ قطعاً، وخصوصاً إذا ساقت إليه المقاصد الحسنة، كالإعتبار بالموت، وإظهار الحبّ للميت، ومواساة أهل الميّت في مصابهم به، وهو تعبير إنساني جُبل عليه الإنسان وطُبع عليه.

ومن هذا المنطلق فإنّه يتعيّن حكم البكاء بحسب العناوين والأدلّة المُحكّمة، فقد يترقّى من الرّجحان إلى الإستحباب، ومن الإستحباب إلى الإستحباب المؤكّد، كما هو الحال في البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، إذ أنّ البكاء عليه راجحٌ قطعاً، ومستحبٌّ مؤكّدٌ، دلّ على ذلك البرهان الذي لا ينكره إلاّ مكابر، وشُفِعَ ذلك بالسيرة النبويّة العطرة التي فصّلناها في كتابنا " الدّمعة السّاكبة " وسيرة الإمامة الهادية كما بيّنّا وسنبيّن.

مضافاً إلى اشتمال البكاء الحسيني على قصود مهمّة، وضمّه لغايات سامية، وانطوائه على جملة كبيرة من المنافع الدينيّة، ومجموعُها يُحتّم استحبابه المؤكّد، ويمكننا أن نقول من بعد ذلك أنّ البكاء عليه عليه السلام مندرجٌ تحت عناوين عدّة..

الأول: بكاء الإعتبار بالموت، وما ينطوي عليه ذلك من معاني الزّهد في الدّنيا والعمل للآخرة، والتفكّر في أحوال الماضين الذين مضوا عن هذه الحياة وغابت أعيانُهم ولم يخلّفوا على مسرح الحياة غير أعمالهم الصالحة.

الثّاني: بكاء تكريم الشّهيد في سبيل الله تعالى، الذي كرّمه الله وشرّفه وأعطاه الخلود والذكر الجميل، بالشّكل الذي يقتضي التفاعل مع فكره وعطائه وهدفه والسّعي إلى إحقاق الحقّ الذي من أجله استُشهد.

الثالث: بكاء تحقيق الأمر بالمعروف، الذي قُتل من أجله وقصداً لتشييده،

خصوصاً بعد أن أضحى البكاء عليه عليه السلام اليوم من أقوى سُبُل الدّعوة إلى الله تعالى والإسلام، وطريقاً لمعرفة الأصول الإعتقادية وتشييد الإعتقاد بها.

الرّابع: بكاء إنكار المنكر، ورفض الظُّلم والإستبداد، وتقبيح عمل الظّالمين والطُّغاة، وما ينطوي عليه ذلك من تشييد لروح الشجاعة والصمود والوقوف في وجه المجرمين وقول كلمة الحق أمام السُّلطان الجائر، والتفاعل ضد ما أنكره الإمام الحسين عليه السلام على بني أميّة.

الخامس: بكاء القربة إلى الله تعالى، عبر التوحّد مع نفوس أوليائه الطاهرين عليهم السلام والإنغماس في نورانيّتهم، والتّشبّه بأوضاع العارفين، والتألّم على ما هُتك من حزب الله تعالى، والتوجّع لما صدر في حقّ أولياء الله سبحانه وأمنائه على الدّين، وطلباً لنيل قبوله سبحانه وتعالى.

السّادس: بكاء القرب من الإمام الحسين عليه السلام، إذ أنّ بكاءه يقتضي الإنصهار والإندكاك في ذاته الشريفة، وهو أمر محبوب، إذ أنّه عليه السلام هو الأقرب من روح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونفسه، وهو حبيبه الذي قال فيه: حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً.

السابع: بكاء الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام، الذين ندب القرآن الكريم ودعى إلى حبّهم ومودّتهم، ونصّ على عالي مقامهم، إذ اعتبروا أن قضية الإمام الحسين عليه السلام هي قضيّتهم الأولى، وأكّدوا على إحياء أمرهم بالبكاء عليه، واعتبروا ذلك أداءً لحقوقهم، فلا يتَقرّب المؤمن بالله تعالى بشيء إليهم كما يتقرّب لهم بالبكاء على الإمام الحسين عليه السلام، ولا شكّ أنّه عليه السلام الطريق الأقصر أمام الخلق للإرتباط بأهل البيت عليهم السلام.

الثامن: بكاء تشييد روح الإيمان والإباء، بدافع الإمتزاج بروحه الطّاهرة وهديه وسيرته، والتأسّي برفضه إعطاء الذليل لعبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية، واختياره إباء الضّيم ومواجهة الموت الكريم على هوان العبوديّة، فإنّ الله تعالى لم يرخّص للمُؤمن في أن يذلّ نفسه على كلّ حال، وحقيق على من يتأثّر به عليه السلام أن يأبى الضيم ويرغب في معالي الأمور.

التاسع: بكاء الإئتمار لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام الذين بالغوا في التأكيد على البكاء عليه، ودلّ على ذلك فعلهم وأمرهم وتقريرهم، وعند التحقيق نجد أنّ أحاديث فضل البكاء والإنشاد والزيارة الواردة عنهم تفوق أحاديث بعض العبادات المهمّة كما لا يخفى على البصير، بما لا يدع مجالاً للشكّ في صدورها عنهم، وفي تأكّد إستحباب البكاء عليه عليه السلام.

العاشر: بكاء مواساة أهل البيت عليهم السلام في أحزانهم، وهو واجبٌ يفرضه حبّهم ومودّتهم والتوجّع لمصابهم، فإنّهم قد بكوا الإمام الحسين عليه السلام ولفتوا الأنظار ببكائهم عليه، وصدر منهم جميعاً ذلك، من نبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وحتّى الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

إلى سائر الوجوه الأخرى التي يمكن تصوّرها في المقام، كبكاء النّصرة للمظلوم بحزن القلب والدّمع، وفي سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديثٌ شيّقٌ في البكاء نورد مثالاً منه من باب التأكيد والتبرّك.

إذ أخرج الحافظ الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين بإسناد مرفوع إلى أمّ الفضل بنت الحارث، أنّها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة.

قال: وما هو ؟ قالت: إنّه شديد !! قال: وما هو ؟ قال: كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري ! فقال رسول الله ﷺ: رأيت خيراً. تلد فاطمة إن شاء الله غلاماً فيكون في حجرك.

فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري كما قال رسول الله ﷺ. فدخلت يوماً إلى رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم حانت منّي إلتفاتة فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان من الدّموع !

قالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك ؟ قال: أتاني جبرئيل عليه السلام فأخبرني أنّ أمتي ستقتل إبني هذا !! فقلت: هذا !! فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء[1].

ثواب البكاء الحسيني

تلقّى الأئمة الطاهرون عليهم السلام إرثاً من الأحزان عن رسول الله ﷺ كما تلقّوا عنه العلم وسائر الكمالات والفضائل، إلاّ أنّهم عليهم السلام قنّنوا مظاهر الحزن وحفّزوا النفوس لبقائه وخلوده، وسلكوا سُبلاً غاية في التأثير، أهمّها وصف ثوابه الجزيل

(١) أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (١٧٦/٣) وقال: هذا حديث صحيح، على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كما أخرجه البيهقي بصوره المختلفة في دلائل النبوّة (٤٦٨/٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والخوارزمي في المقتل (١٥٩/١)، وابن الأثير في البداية والنهاية (٢٠٣/٦)، والسيوطي في الخصائص (١٢٦/٢)، وقريب منه ما أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩/٩)، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة، وابن حجر في الصواعق المحرقة، والمتقي الهندي في كنز العمّال، وهذا المعنى مستفيض في كتب الحديث.

وأجره العظيم، فهم العلماء وورثة العلم والدين، وبيّنوا للنّاس فضل البكاء على الإمام الحسين عليه السلام، فضمنوا خلود الحزن وبقائه بمغريات إجراء الدّمع، وأهمّها وصف ثوابه الجزيل إلى آخر الأبد.

❖ روَى الشيخ الصدوق رحمه الله بإسناده إلى علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه قال: قال الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام: من تذكّر مصابنا وبكى لما ارتكب منّا، كان معنا في درجتنا يوم القيامة، ومن ذُكّر بمصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيى فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب[1].

يُبيّنُ الإمام الرضا عليه السلام في هذا الخبر الثواب الجزيل على البكاء من خلال مؤثّر ومهم، هو تذكّر المصاب، وإنّما يتم التذكّر باستحضار صور الأحداث ومشاهد الأحزان في الخاطر، وبالتّالي يكون الحزن والبكاء.

فالإطّلاع على تلك المشاهد التاريخيّة المؤلمة من خلال قراءة الكتب أو إستماع الرّثاة والخطباء مقدّمة مهمّة لحصول التذكّر المفضي إلى البكاء المستحب، ولا بدّ من تحصيل ذلك والإستزادة منه، فبقدر الإطّلاع على أحوالهم ومصائبهم ومعرفة مقاماتهم يكون التأثّر لهم قطعاً، فيستحق المؤمن حينئذٍ أن يكون معهم عليهم السلام في درجتهم يوم القيامة، لتوحّده معهم بتفاعله مع قضاياهم.

وكذا الحال في من عرّض نفسَه لتذكّر مصابهم عليهم السلام باختياره الجليس الصالح الذّاكر لهم، أو بحضوره في مجالس ذكرهم عليهم السلام فإنّه يستحق بتذكّره وبكائه

(١) راجع أمالي الشيخ الصدوق رحمه الله ص (٧٣)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٧٨).

السّرور يوم القيامة، اليوم الذي يبكي فيه الضّاحكون في الدّنيا غالباً، ويُنعّم بحياة القلب، ولم يمت قلبه أبداً.

❖ رَوَى السيّد ابن طاووس رحمه الله عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: من ذَكَرَنا أو ذُكرنا عنده فخرج من عينه دمع مثل جناح بعوضة غفر الله له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر[1].

يؤكّد الإمام الصّادق عليه السلام هنا على أنّ من ذكرهم أو تعرّض إلى ظرف يتذكّرهم فيه استحق غفران الذنوب العظام، فالبكاء ـ بحسب هذه النصوص ـ يساوغ التوبة في إسقاط الذنوب، إذ فتح الدّين باسم الإمام الحسين عليه السلام باباً من أبواب الرّحمة الواسعة، بأقلّ الممكن من الدّمع، المعبّر عن مقداره بجناح البعوضة لغفران الذنوب وإن كانت مثل زبد البحر !!

❖ رَوَى ابن قولويه في كامل الزيارات عن ابن خارجة عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: قال الحسين بن علي: أنا قتيل العبرة، قتلت مكروباً، وحقيق على الله أن لا يأتيني مكروب قط إلاّ ردّه الله وأقلبه إلى أهله مسروراً[2].

يُبيّن الإمام الصادق عليه السلام هنا ثمرة مهمّة من ثمار البكاء والحزن له عليه السلام وهو إتيانه وقصده، ويعتبر طابع الحزن من أوّل أسرار الجاذبية الكبرى التي وهبَها وليّه الإمام الحسين عليه السلام، فصار كعبة وموئلاً لوفود الزائرين والمكروبين الذين شاء الله تعالى لهم ألاّ يرجعوا من عنده إلاّ بالسّرور والفرج وقضاء الحاجات الدّنيوية

(١) راجع اللهوف ص (١٠)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٧٨).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٩)، وثواب الأعمال ص (٩٨)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٧٩) و (٩٨/٤٨)، ووسائل الشيعة (١٤/٤٢٢).

والأخرويّة.

❖ روى القمي في تفسيره بالإسناد إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: أيّما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين بن علي دمعة حتى تسيل على خدّه بوأه الله بها في الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دمعت عيناه دمعاً حتى يسيل على خدّه لأذىً مسّنا من عدونا في الدّنيا بوأه الله مبوأ صدق في الجنة، وأيّما مؤمن مسّه أذى فينا فدمعت عيناه حتى يسيل دمعه على خدّيه من مضاضة ما أوذي فينا صرف الله عن وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة من سخطه والنار[1].

وهنا يؤكّد الإمام زين العابدين عليه السلام على أنّ الباكي لما مسّهم من عدوّهم ولو بالدّمعة الواحدة، هو من الخالدين في الجنّة، ثمّ يعطف عليه السلام على هذا الدّاعي داعي البكاء من مضاضة الأذى الذي لحقهم بسبب ولائهم ومودّتهم عليهم السلام والإرتباط بهم، فإنّ الله تعالى يجازيهم عن صبرهم وتحمّلهم، ويعصمهم من الأذى ويغمرهم برضوانه ويجنّبهم النّار ويعصمهم من موارد غضبه.

❖ روى ابن قولويه بإسناده إلى الحسن بن علي بن أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء على الحسين بن علي عليه السلام فإنه فيه مأجور[2].

---

(١) راجع تفسير القمي (٢/٢٩١)، وثواب الأعمال ص (٨٣)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠١)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٩١).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٠)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٩١)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠٧).

ويعدّ هذا الحديث من الأصول المهمّة المعتبرة في أبواب الشّعائر الحسينية، فهو القاعدة المحكّمة في مظاهر الولاء الصّادرة من محبّي أهل البيت عليهم السلام، فقد ندّد الإمام الصادق عليه السلام بكلّ أنواع الجزع، وتضمّن الخبر مدح الصّبر ورغّب المؤمنين بالتزامه ومنع من مجاوزته إلى ما يخالفه من الأقوال والأفعال، فالصّبر من الإيمان كالرّأس من الجسد، والجزع نقيض الصّبر.

إذ أنّ البكاء المرفوض في الخبر هو المقترن بالجزع كما هو واضح، فهو مكروه في شريعة الإسلام، وتصل بعض مظاهره إلى الحرمة، لكن الإمام عليه السلام استثنى الجزع بكلّ ضروبه ومظاهره على الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكتفِ بالحكم بجوازه، بل أكّد على إستحبابه واستحقاق مرتكبه الأجر والثواب من الله تعالى.

إذ يتبدّل حكم الجزع في هذا المقام من الكراهية إلى الإستحباب مطلقاً، وعلى ذلك فقهاء الطّائفة (أعلى الله كلمتهم) وإن استلزم ضرراً غير معتد به، كالضّرب على الرأس أو الوجه أو الصّدر أو جزّ الشعر أو شقّ الثوب أو اللطم على الجسد، إلى غير ذلك من الأمور التي تصدر عادة من الجازع، وإن بلغ بالضّرب واللطم حدّ الإحمرار والسّواد والإدماء والجرح على تفصيل يأتي إن شاء الله تعالى.

ويدخل تحت هذا العموم كثير من الشعائر الحسينية والعادات المتّبعة المصاحبة لبعض المواكب العزائية بوضوح وجلاء، وواضحٌ أنّ في الكثير من حالات الجزع ومظاهره على الإمام الحسين عليه السلام تحقّقٌ لعنوان الإبكاء المستحب في نفسه.

❖ رَوَى ابنُ قولويه في كامل الزيارات عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه

قال: لكل شيء ثواب، إلاّ الدّمعة فينا[1].

والمراد من الحديث الشريف أنّ الله تعالى قد عيّن لكلّ عبادة من العبادات ثواباً معيّناً، وجعل إزاء كلّ عمل جزاءً خاصّاً، وهذا مذكورٌ معروفٌ في أحاديث ثواب الأعمال، من قبيل: من قال " لا إله إلاّ الله " غرست له شجرة في الجنّة، وأمثال ذلك..

إلاّ أن جزاء الدّمعة الجارية على مصاب أهل البيت عليهم السلام غير محدود أبداً، ولا يعلم ثوابها إلاّ الله سبحانه، فهو القادر على إحصاء الأجر الكبير للدّمعة الواحدة، وبذلك يتعيّن أنّ البكاء عليهم عليهم السلام من أفضل العبادات قطعاً.

❖ روى ابن قولويه أيضاً بإسناد يرفعه إلى زرارة أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: يا زرارة، إن السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدم، وإن الأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد، وإن الشمس بكت أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة، وإن الجبال تقطّعت وانتثرت، وإن البحار تفجّرت، وإن الملائكة بكت أربعين صباحاً على الحسين عليه السلام.

وما اختضبت منّا امرأة ولا ادّهنت ولا اكتحلت ولا رجّلت، حتّى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، وما زلنا في عبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتى تملأ عيناه لحيته، وحتى يبكي لبكائه رحمة له من رآه، وإن الملائكة الذين عند قبره ليبكون فيبكي لبكائهم كل من في الهواء والسماء من الملائكة.

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٦)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٧) وفيه: (لكل سرّ ثواب)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٩٧).

ولقد خرجت نفسُه عليه السلام فزفرت جهنم زفرة كادت الأرض تنشق لزفرتها، ولقد خرجت نفس عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية فشهقت جهنم شهقة لو لا أن الله حبسها بخزانها لأحرقت من على ظهر الأرض من فورها، ولو يؤذن لها ما بقي شيء إلاّ ابتلعته، ولكنها مأمورة مصفودة، ولقد عتت على الخزان غير مرة حتى أتاها جبرئيل فضربها بجناحه فسكنت، وأنها لتبكيه وتندبه وأنها لتتلظى على قاتله، ولولا من على الأرض من حجج الله لنقضت الأرض و أكفأت بما عليها، وما تكثر الزلازل إلاّ عند اقتراب الساعة.

وما من عين أحب إلى الله ولا عبرة من عين بكت ودمعت عليه، وما من باك يبكيه إلاّ وقد وصل فاطمة عليها السلام وأسعدها عليه، ووصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأدّى حقّنا، وما من عبد يحشر إلاّ وعيناه باكية إلاّ الباكين على جدي الحسين عليه السلام فإنه يحشر وعينه قريرة والبشارة تلقاه والسرور بيّن على وجهه، والخلق في الفزع وهم آمنون، والخلق يعرضون وهم حداث الحسين عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء يوم الحساب.

يقال لهم: ادخلوا الجنة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، و إن الحور لترسل إليهم: أنا قد اشتقناكم مع الولدان المخلدين، فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة، وإن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار، ومن قائل ما لنا من شافعين ولا صديق حميم، وإنهم ليرون منزلهم وما يقدرون أن يدنوا إليهم ولا يصلون إليهم، وإن الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن خدّامهم على ما أعطوا من الكرامة، فيقولون نأتيكم إن شاء الله، فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم

خبّروهم بما هم فيه من الكرامة وقربهم من الحسين عليه السلام فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر وأهوال القيامة ونجّانا مما كنا نخاف، ويُؤتون بالمراكب والرّحال على النّجائب فيستوون عليها وهم في الثناء على الله والحمد لله والصلاة على محمد وآله حتى ينتهوا إلى منازلهم[1].

أقول في مقام التعليق على هذا الحديث: أنّني لو صرفتُ كلّ العمر في فقه هذا الحديث الشريف لقصرتُ عن بلوغ بعض محتواه، فإنّ فيه الكثير من المقاصد الجليلة، لكنّه لا يسقط الميسور بالمعسور.

فالإنسان المؤمن مأمور بالبكاء والحزن على سيّد الشهداء عليه السلام تماشياً مع كلّ أجزاء الكون الرّحب وذرّاته التي بكت عليه أيضاً، فالسّماء والأرض والشمس والجبال والبحار والملائكة، وحتّى جهنّم، مخلوقات لله تعالى نالت شرف أداء هذا الفرض المحبوب، ألا وهو البكاء عليه..

وينسجم الإنسان المؤمن مع هذه المنظومة الكونيّة ويواكبها بحزنه وبكائه عليه عليه السلام انسجامه مع تسبيح الكون بما فيه ممّا يُرى وممّا لا يُرى، قال تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾.

ثمّ يُبدي الإمام عليه السلام حافزاً مهمّاً من محفّزات البكاء، ويُبيّن حال بني هاشم بعد الواقعة، وإذا كان حال الأئمة عليهم السلام معلوماً من خلال الأخبار الواردة، فإنّه يأخذنا إلى بيان حال نساء بني هاشم، فقد هَجَرنَ لذّة الحياة وعشن في قمّة

(١) راجع كامل الزيارات ص (٨١)، وبحار الأنوار (٢٠٦/٤٥)، ومستدرك الوسائل (٣١٣/١٠).

حالات الجزع، وحرّمن على أنفسهنّ الحياة الإعتيادية التي تعيشها المرأة، من الخضاب والدّهن والكحل وترجيل الشعر، وبقين على هذه الحالة المفجعة، حتّى جيء لهنّ بخبر المختار الثقفي، ولا زلن في حزن وبكاء على الإمام الحسين عليه السلام.

ويصف الإمام الصادق عليه السلام حال جدّه الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعد ذلك، فلا يزال حليف الحزن والبكاء، مظهراً قمّة الجزع، إلى درجة أنّ النّاس صاروا يبكون رحمة وشفقة عليه !!

وبعد تلك المقدّمات يصف الإمام عليه السلام ثواب البكاء على المولى عليه السلام، ويؤكّد على أن تلك العيون الباكية محبوبة عند الله تعالى، وأنّ هذا البكاء بكاء صلة للنبي الكريم صلى الله عليه وآله وابنته الطّاهرة فاطمة عليها السلام، وإنّ مصير هؤلاء الباكين الأمن يوم الفزع الأكبر، ومحشرهم تحت العرش بجوار الإمام الحسين عليه السلام فطوبى لهم وحسن مآب.

وتستوقفني جملة مهمّة وردت ضمن جُمَل الخبر.. وهي "إن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار "والمقصودون هم أعداء الباكين على الحسين عليه السلام !!

فإنّ الإمام الصادق عليه السلام لّما بيّن الفضل الكبير للباكين على جدّه عليه السلام عطف القول إلى بيان مصير أعدائهم المشنّعين عليهم في دار الدنيا، المؤذين لهم، المحاربين لشعائر مولانا الحسين عليه السلام بأيّ نحو من الأنحاء، بمنعها أو التشكيك فيها أو إثاره الشّبه في المجتمع لزعزعة المؤمنين تجاهها.

وفي هذا الحديث تحذير جدّي ومخيف، ينبغي أن يقف عليه هؤلاء العابثون بالنّار المحرقة، وليحذروا من عاقبة أمرهم قبل أن تكويهم لواهبها، فإنّ مصيرهم إلى جهنّم، وإن أتعبوا أنفسهم واجتهدوا رجاء بلوغ السراب الذي يحسبونه من

ظمئهم ماءً، فسبيل الجنّة مشروط بالإمام الحسين عليه السلام.

❖ رَوَى أيضاً بإسناده إلى مسمع بن عبد الملك كردين البصري قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا مسمع أنت من أهل العراق؟ أ ما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟

قلت: لا، أنا رجل مشهور عند أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة، وعدوّنا كثير من أهل القبائل من النصّاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان، فيمثّلون بي.

قال لي: أ فما تذكر ما صنع به؟

قلت: نعم. قال: فتجزع؟

قلت: إي والله، وأستعبر لذلك، حتى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع من الطعام، حتى يستبين ذلك في وجهي.

قال: رحم الله دمعتك، أما إنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا ويخافون لخوفنا ويأمنون إذا أمنّا، أما إنك سترى عند موتك حضور آبائي لك ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، ولملك الموت أرق عليك وأشد رحمة لك من الأم الشفيقة على ولدها.

قال: ثم استعبر، واستعبرت معه.. فقال: الحمد لله الذي فضّلنا على خلقه بالرحمة، وخصنا أهل البيت بالرحمة، يا مسمع، إن الأرض والسماء لتبكي منذ قتل أمير المؤمنين عليه السلام رحمة لنا، وما بكى لنا من الملائكة أكثر، وما رقأت دموع الملائكة منذ قتلنا، وما بكى أحد رحمة لنا ولما لقينا إلاّ رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خده فلو أن قطرة من دموعه سقطت في

جهنم لأطفأت حرّها حتى لا يوجد لها حر.

وإن الموجع لنا قلبه ليفرح يوم يرانا عند موته فرحة لا تزال تلك الفرحة في قلبه حتى يرد علينا الحوض، وإن الكوثر ليفرح بمحبّنا إذا ورد عليه حتى أنه ليذيقه من ضروب الطعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه.

يا مسمع، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، ولم يستق بعدها أبدا، وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل وألين من الزبد وأصفى من الدمع وأذكى من العنبر، يخرج من تسنيم ويمر بأنهار الجنان، يجري على رضراض الدّر والياقوت، فيه من القدحان أكثر من عدد نجوم السماء، يوجد ريحه من مسيرة ألف عام، قدحانه من الذهب والفضة وألوان الجوهر، يفوح في وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: يا ليتني تُركت هاهنا لا أبغي بهذا بدلاً ولا عنه تحويلا.

أما إنك يا ابن كردين ممّن تروى منه، وما من عين بكت لنا إلاّ نعمت بالنظر إلى الكوثر، وسقيت منه من أحبّنا، وإن الشّارب منه ليعطى من اللذة والطعم والشهوة له أكثر ممّا يعطاه من هو دونه في حبّنا.

وإن على الكوثر أمير المؤمنين عليه السلام وفي يده عصاً من عوسج، يحطّم بها أعداءنا، فيقول الرجل منهم: إني أشهد الشهادتين !! فيقول: انطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك. فيقول: تبرّأ مني إمامي الذي تذكره !! فيقول: ارجع إلى ورائك، فقل للذي كنت تتولاّه وتقدمه على الخلق فاسأله إذا كان خير الخلق عندك أن يشفع لك، فإن خير الخلق من يشفع حقيق أن لا يرد إذا شفع. فيقول: إني أهلك عطشاً. فيقول له: زادك الله ظمأ، وزادك الله عطشاً.

قلت: جعلت فداك، وكيف يقدر على الدنو من الحوض، ولم يقدر عليه غيره؟ فقال: ورع عن أشياء قبيحة، وكفّ عن شتمنا أهل البيت عليهم السلام إذا ذكرنا، وترك أشياء اجترى عليها غيره، وليس ذلك لحبّنا ولا لهوى منه لنا، ولكن ذلك لشدة اجتهاده في عبادته وتديّنه، ولما قد شغل نفسه به عن ذكر الناس، فأما قلبه فمنافق، ودينه النصب، وأتباعه أهل النّصب، وولاية الماضين وتقدمه لهما على كل أحد[1].

إنّ المعيار الديني الواقعي في تقييم الإنسان المؤمن هو الإمام الحسين عليه السلام، ويمكننا أن نقيّم كلّ الشخصيّات الدّينية وفق هذا المعيار الدقيق، ولو كانت في نظر المجتمع قمّة من القمم، أو حتّى لو قائداً أو مرجعاً أو رمزاً، فبمقدار دعمه وتفانيه في قضيّة الإمام الحسين عليه السلام يتعيّن مقامه عند الله تعالى والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وكذلك الكلام بالنسبة لسائر المعتقدات الخاصّة والموروثات المذهبيّة والمظاهر الولائية التي حثّ عليها أهل البيت عليهم السلام وأمروا شيعتهم بتشييدها، وأعطوهم الضّوء الأخضر في إنمائها وإحيائها بالعمومات التي ملأت كتب الأخبار.

وهذا المعيار الدّقيق في تقييم الأفراد ظاهرٌ بالتأمّل في روايات الشّعائر أيضاً، وهو بادٍ في مضامينها وذوقها، وللقاريء الكريم أن يستجليه من سائر النّصوص.

ومن أهم المظاهر التي اهتمّ بها الإمام الصّادق عليه السلام في سؤاله من مسمع في هذا الخبر زيارة قبره الشريف بكربلاء، فهو المظهر الأتم للولاء والمصداق الأوفى للمودّة،

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠١)، وبحار الأنوار (٤٤/٢٨٩)، ووسائل الشيعة (١٤/٥٠).

ولّما تبيّن له عذره عن الزيارة سأله عن جزعه له عليه السلام ، واهتمّ بالبكاء عليه.

وأقرّه الإمام عليه السلام على تركه الزّيارة لعذر الخوف ظاهراً ، إذ أنّ أعظم الواجبات في الإسلام محكومة بحفظ النّفس والتقيّة ، والأولى أن نحمل سكوت الإمام عليه السلام على غير التقرير بالرّخصة ، إذ أنّ الأخبار واردة عنهم عليهم السلام باستحباب زيارة خصوص الإمام الحسين عليه السلام على الخوف وسيأتي ذكرها في شعيرة الزيارة إن شاء الله تعالى.

فإذا ترك مسمع زيارة الإمام الحسين عليه السلام لخوف أو تقيّة.. فإنّ الإمام الصّادق عليه السلام لم يجد له رخصة في ترك تذكّر مصابه عليه السلام وما صُنع به !! فسأله عن الجزع والبكاء ، لأنّها أوّل مظاهر التذكّر ، فأجابه مسمع بالإيجاب.

ويجب الوقوف التأمّل في سيرة أصحاب الأئمة عليهم السلام فإنّها كاشفة عن تربية الأئمة عليهم السلام لهم رضي الله عنه ، فالبكاء بين الأهل سيرة مطّردة لأهل العصمة عليهم السلام ، وإشراك العائلة بالبكاء على الإمام عليه السلام عادة معلومة عند أهل البيت عليهم السلام ، ولهذا فإنّ مسمعاً كان يبكي حتّى يستبين البكاء والحزن في وجهه ويمتنع عن الطعام! وفي هذه الأجواء ينشأ الطّفل ويشبّ ويسفر إيمانه عن أمثال مسمع الموفّق بخدمة إمام زمانه ، وبهذه السيرة يترعرع النّشأ آلفاً مظاهر الولاية ، ومن أهمّها حبّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام ، ويُحاكي سيرة أبيه كعادة الأبناء ، تماماً كما يعلّم المسلم إبنه حبّ الصلاة قبل سنّ التكليف.

ويبدو من هذا الخبر أنّ الإمام عليه السلام كان مستعدّاً في كلّ حالاته لتذكّر المصاب فاستعبر باكياً لمرور ذكر مصاب جدّه عليه السلام ، ليؤكّد بعد ذلك على فضل البكاء عليه عليه السلام وكرامة الباكين عند الله عزّ وجل.

وأخبار فضل البكاء على الإمام الحسين عليه السلام كثيرة جدّاً، وكتب الشّيعة زاخرة بتصنيفها، وجلّها يؤكّد استحباب هذه العبادة، وقد جاوزت حدّ التواتر بقسميه اللفظي والمعنوي، وإنّنا في غنى عن النظر في أسانيدها والفحص عن أحوال رواتها، وفيها الصحيح والحسن والمعتبر والموثّق، ولا يمكن التشكيك في صدورها بالجملة عن أهل البيت عليهم السلام على كلّ حال.

وأخبار هذه العبادة مرويّة في كتب الشّيعة المعتبرة التي تعدّ أخبارها من الصّحاح عند قدماء علمائنا رحمهم الله من الإخباريين وغيرهم، وقد قال بصحّتها جمعٌ من العلماء المتأخّرين، فيلزم الإعتقاد بمضمونها بالجملة والإلتفات لمدلولاتها النورانيّة، وتحرّي البحوث المهمّة المتصلة بها على وجه الدقّة، فإنّ فيها فقه كثير وفوائد جليلة جمّة..

وقد مرّت الإشارة إلى بعض تلك الفوائد المهمّة عند التعليق على الأخبار الشريفة، ولا بدّ من الإشارة إلى بعض الفوائد المهمّة الأخرى على ضوء ما تقدّم.

البكاء والضرر

إنّ مقتضى هذه النصوص المتقدّمة استحباب البكاء مطلقاً، ويظهر من بعضها استحباب مواصلة البكاء على مصابهم عليهم السلام، فقد أثنوا على شيعتهم الذين شاركوهم بطول البكاء والحسرة، وعليه فإنّ البكاء مستحب حتّى مع استلزام الضّرر، من قبيل تقرّح جفون العين وتجريحها تأسّياً بالأئمة المعصومين عليهم السلام، فإنّ مصاب الإمام الحسين عليه السلام قد أقرح جفونهم، والقَرْح - بالفتح فالسّكون - هو الجراح، ومعلومٌ أنّ تقرّح الجفون لا يكون إلاّ بعد البكاء المتواصل الطويل.

ويتعدّى مولانا الإمام المهدي عليه السلام ذلك الحد إلى البكاء دماً بدل الدّموع كما مرّ في ألفاظ زيارته، ويُحكى ذلك متواتراً عن الإمام زين العابدين عليه السلام ويُنقل في حالاته، وهو الذي قد شهد الوقعة في كربلاء الدّامية وقاسى آلامها، وقد استمرّ ببكائه على أبيه حتّى استُشهد، وقد نقلنا شطراً من أخبار جزعه فيما تقدّم، حتّى عُدّ في الأخبار أحد البكّائين الخمسة في تاريخ الأولياء.

وقد استَشهد الإمام السجّاد عليه السلام ببكاء نبي الله يعقوب عليه السلام على ولده يوسف عليه السلام، الذي جاوز بجزعه حدّ الضّرر قطعاً، كما جاء ذلك في نصّ القرآن الكريم: ﴿**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾ وملاحظٌ أنّ الله تعالى لم يُعقِب ذلك بذم، كما أنّه يستحيل صدور القبيح من الأنبياء عليهم السلام.

والأسف هو أشدّ الحزن على ما فات، وابيضاض العين معناه فقد البصر، فإنّه عمي من شدّة حزنه وغمّه كما في التفاسير، والحرَض هو المرض والبلى وفساد الجسم والمشارفة على الهلاك، وكلّها أضرار معتدٌّ بها من غير شك.

ولا مجال للتمسّك بأدّلة حرمة الضرر والإلقاء في التهلكة، لحكومة هذه الأدلّة عليها، كما أنّه لا مجال للتمسّك بها في موارد جعل الأحكام الضرريّة، كالجهاد والزّكاة وأمثاله، فقد أُخذ في تشريعها معنى العناء والتحمّل والصبر على الأذى كما هو واضح.

والكلام نفس الكلام في سائر الشّعائر الحسينية المنصوصة عنهم عليهم السلام،

كشعيرة زيارة الإمام الحسين عليه السلام وما يُلحق بها، والكلام نفسه يجري في سائر الشّعائر الحسينيّة كاللطم والإدماء، فهي داخلة تحت عمومات نصوص الشّعائر الواردة، ولا شكّ أنّ الضرر مصاحبٌ لبعضها، إلاّ أنّها من مصاديق الجزع المرخّص به بل المندوب قطعاً، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

البكاء حال الصلاة

إنّ إطلاق النّصوص يقتضي إستحباب البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وكذا سائر المعصومين عليهم السلام في كلّ حال مطلقاً، سواء كان ذلك في وقت الفراغ أو حال الإشتغال في عبادة أخرى.

ويُستحب البكاء على مصائب سيّد الشهداء عليه السلام حتّى في حال الصلاة، خصوصاً إذا كان البكاء قربة لله تعالى، أو لأجل قصد أخروي، وبهذا يتجلّى هدف كبير من أهداف إقامة الصلاة أصلاً، وتكون عبادة في عبادة، تماماً كقراءة الدّعاء المأثور في قنوت الصّلاة المستحبّة أو الواجبة، أو مطلق الذّكر الجائز أثناء الصّلاة مثلاً..

وقد قال جملة من الفقهاء أنّه لا فرق في ذلك بين البكاء رحمة وشفقة لما ارتكب الطغاة في حقّهم بدافع إنساني، وبين كونه قربة لله تعالى أو لأجل قصد أخروي، لأنّ بكاء الرحمة بحدّ ذاته محبوب عند الله تعالى، ويترتّب عليه الأجر والثواب، لكنّ من الفقهاء من اعتبر هذا البكاء **"الرّحمة"** من منافيات الصّلاة، وأكثر الفقهاء على القول بالإقتصار على القربة والقصود الأخرويّة.

والحق أن يُقال أن البكاء على سيّد الشّهداء عليه السلام لا يكون إلاّ قربة لله

تعالى، سواءً انطوى على بعض القصود الأخرويّة أو الدنيويّة، خصوصاً وإنّ الأخبار قد عَنونَت ذكرَه الشريف كمستحب في نفسه، فيكون ذكره الشريف عبادة على كلّ الأحوال.

وقد صرّح أكثر الفقهاء - من المتقدمين والمتأخّرين - بجواز البكاء على الإمام الحسين عليه السلام قربة لله تعالى أو لقصد أخروي، وعنونوا هذه المسألة في كتبهم الإستدلاليّة ورسائلهم العمليّة فراجع[1].

(١) صرّح عدّة من الفقهاء بجواز البكاء في الصلاة على الإمام الحسين عليه السلام ومصائب الآل عليهم السلام مطلقاً، واقتصر بعضهم على موارد القربة إلى الله سبحانه والحصول على الدرجات العالية ومرافقتهم عليهم السلام في الجنان، وقال بذلك المرحوم الشيخ جعفر الكبير آل كاشف الغطاء رحمه الله في كشف الغطاء، والعلاّمة الكرباسي رحمه الله في منهاج الهداية، والفقيه العقيلي النوري رحمه الله في وسيلة المعاد، والفقيه الهمداني رحمه الله في كتاب الصلاة من مصباح الفقيه، وظاهر الشيخ النجفي رحمه الله في جواهر الكلام، وهو المشهور بين الأصحاب لانصراف النصّ عنه.
وأفتى بذلك المرحوم الآية العظمى السيّد أبو القاسم الخوئي رحمه الله في منهاج الصالحين وفي المسائل المنتخبة في باب منافيات الصلاة، فراجع.
وراجع للفائدة بحوث الفقيه الآية الفاضل الدّربندي رحمه الله في كتابه الشهير أسرار الشهادة الذي وفقنا الله تعالى لتحقيقه وطبعه في ثلاثة مجلّدات، فإنّ فيه الكفاية في هذا الموضوع، وراجع كذلك كتاب نجاة الأمّة في إقامة العزاء على الحسين والأئمة عليهم السلام للعلاّمة المعاصر السيّد محمّد رضا الحسيني الحائري ففيه فوائد مهمّة، وكتاب الشعائر الحسينيّة في الميزان الفقهي للشّيخ عبد الحسين الحلي، المطبوع بتحقيق نزار الحائري.

كفارة الذنوب

إن مقتضى النصوص الشّريفة يؤدّي إلى استحباب البكاء على سيّد الشهداء عليه السلام، لكونه من كفارات الذنوب العظام وإن بلغت زبد البحر، الصغيرة منها والكبيرة، ويترتّب الجزاء للباكي وإن كان فاسقاً أو منافقاً أو حتّى كافراً، ويغفر الله ذنوب المذنبين بالبكاء من غير حاجة إلى التوبة كما هو ظاهر النّصوص.

ولم ينكر أحدٌ هذا الظّهور، لكّن البعض إستنكره واستبعده للزومه بعض المحاذير، منها دخول الكافر والمنافق وأصحاب الكبائر إلى الجنّة، أو إغراء الجهّال بالمعاصي والموبقات إتّكالاً على هذه العبادة، وهذا قابل للردّ.. إذ الظّاهر أنّ مصلحة بيان فضل البكاء في نفسه أهم من بيان دفع هذه المحاذير المتصوّرة، وإن كان لازمه الإغراء بالجهل المتوهَّم، لما يترتّب على بيان فضل البكاء الحسيني من حفظ الدين وبقاء شريعته وفضح أعدائه، وهي فريضة لا تتقدّمها فريضة بالفضل.

ومع هذا فإن الواجب على المؤمنين من محبّي سيّد الشهداء عليه السلام إجتناب المعاصي صغيرة وكبيرة، فقد قُتل سيّد الشّهداء عليه السلام لحفظ الدين وتثبيت شرائعه والذبّ عن أحكامه، والشيء الذي تؤكّده التعاليم الدينية هو أنّ المعاصي تسلب توفيق الخدمة من مرتكبها وتوجب قساوة القلب وتحجبه عن الإتصال بالأئمّة الأطهار عليهم السلام، ولا بدّ من استحضار الهدف الذي استشهد من أجله الإمام عليه السلام حال البكاء ليتمّ الإنسجام مع أهدافه وغاياته.

وقد ردّ بعض المتسرّعين هذه الأخبار الجليلة جهلاً بها ودفعاً لهذين المحذورين، كما أنّه عمد آخرون إلى التأويل البعيد، وأمّا أحسنهم حالاً فهو الذي حملها على زمان صدورها، حيث كان ذكر الإمام الحسين عليه السلام محضوراً

والبكاء عليه ممنوعاً، وقال أنّها صدرت ترغيباً بالبكاء كشكل من أشكال الجهاد في تلك الظّروف المتصرّمة في ذلك الوقت.. وعليه فإنّ مدلولات هذه النّصوص مقصورة على تلك الأزمنة الماضية ولا تشمل سائر العصور، فهي لا تختصّ بعصرنا الحاضر، فالبكاء اليوم ـ بزعم البعض ـ لا يمحو الذنوب ولا يكفّرها ولا يستحق الباكي كلّ هذا الثّواب !!

وإن أعجب لشيء فعجبي من جُرأة البعض على الخوض في المعارف الدّينية، وعلى البتّ في المسائل الولائيّة بعيداً عن الإحتياط ومراعاة جانب الأئمة الأطهار عليهم السلام، وإن دهشتي لهؤلاء كيف يجدون طلاّباً لبضاعتهم الكاسدة، وهم بلاءٌ عظيم في كلّ زمان ومكان، ومن قال لهؤلاء البسطاء أنّ الإمام الحسين عليه السلام اليوم أو غير هذا اليوم لم يكن له عدو يمنع شيعته من البكاء أو يشنّع عليهم ويستهزء بهم، وأعداء الحسين عليه السلام موجودون في كلّ عصر وزمان، مع إشتداد عداوتهم في هذا العصر كما هو واضح ظاهرٌ عند أدنى تأمّل، والحرّ تكفيه الإشارة، على إشتداد مصيبتنا بغيبة إمامنا ووليّنا عليه السلام.

فالحقّ أن البكاء على الأئمة عليهم السلام عموماً وسيّد الشهداء عليه السلام خصوصاً هو من أرقى أنواع الجهاد في سبيل الله تعالى وحفظ الإسلام والدين في كلّ زمان، ومن أفضل وسائل الدعوة إلى الحق والفضيلة، ومن البديهي أن يترتّب عليه كلّ هذا الثواب، فهو سبب هداية الباكين وإن كانوا من الكافرين أو المخالفين أو المنافقين أو الفاسقين، وهو السبيل البيّن لقبول الإسلام والولاية، وقد دلّت على هذا المطلب نصوص عالية المضامين، وهي متضافرة متواترة.

ولا بدّ أن نضمّ إلى ذلك إستغفار ودعاء الأئمة الأبرار عليهم السلام الذي مرّ في حقّ

الباكين والزائرين، ودعاؤهم لا يتخلّف قطعاً، ولا بدّ أن يعود على كلّ الباكين بالنّفع والفائدة، فلا يحتاجون معه إلى التوبة والإستغفار من الذنوب بعد كون البكاء في نفسه سبب مستقل لغفران الذنوب صغيرة وكبيرة، وقد ورد في الأخبار مثل ذلك في خواص بعض الأعمال، ويمكننا القول أنّ البكاء على مصائب الأئمة عليهم السلام يمثّل توبة إلى الله تعالى على نحو الحقيقة، ورجوع إلى كرمه وعفوه، وتعرّض إلى رضوانه.

فسيّد الشهداء عليه السلام هو إمام الهدى وسفينة النّجاة، وصاحب التأثير الكبير على النفوس الإنسانيّة الحرّة، ولابدّ أن تنجذب له كلّ الأحرار بالحبّ والولاء والإنفعال، ومع البكاء عليه يكون التوحّد والإندكاك بشخصه، والتناغم مع مبادئه وأهدافه وغاياته، والتفاعل معه سبب يمنع دخول النّار، شأن البكاء شأن بعض الصّفات المحبوبة عند الله تعالى والتي تحجز المتّصفين بها عن دخول النّار، وإن كان صاحبها مستوجباً لها بكفر أو نفاق أو فسق، فتكون تلك الصفات مزيلة لتلك الموجبات.

ويدلّ على مرادنا الخبر الذي يرويه الشيخ الصدوق رحمه الله بسند صحيح بإسناد يرفعه إلى أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أُتِيَ النّبي صلى الله عليه وآله بأُسارى فأمَر بقتلهم خَلا رجلاً من بينهم.

فقال الرجل: بأبي أنت وأمّي يا محمّد، كيف أطلقت عنّي من بينهم ؟

فقال: أخبرني جبرئيل عن الله عز وجل أن فيك خمس خصال يحبّها الله عز وجل ورسوله، الغيرة الشديدة على حرمك، والسخاء، وحسن الخلق، وصدق اللسان، والشجاعة، فلما سمعها الرجل أسلم وحسن إسلامه وقاتل مع رسول

الله ﷺ قتالاً شديداً حتى استشهد[١].

فإذا كانت هذه الصفات وأمثالها مانعة من القتل والعقوبة الدنيويّة فلماذا لا تكون مانعة من دخول النّار؟

ومثل مؤدّاه ما روي في الكافي الشريف بإسناد يرفعه عبيد الله بن الوليد الوصّافي، عن مولانا الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: إن مؤمناً كان في مملكة جبار فولع به فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك فأظله وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت أوحى الله عز وجل إليه: وعزتي وجلالي لو كان لك في جنّتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات بي مشركاً، ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار، قلت: من الجنة ؟ قال: من حيث شاء الله[٢].

فالإتصاف ببعض الصّفات وملازمة بعض الأعمال من أسباب حسن العاقبة والهداية وغفران الذنوب، وبمقتضى الأخبار التي مرّت يتقرّر أنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام من أفضل تلك الأعمال، وفيه ما فيه من إحياء أمرهم عليهم السلام وبعث أهدافهم السّامية.

ولو أنّنا افترضنا عدم هداية هؤلاء الأصناف بعد بكائهم، أو أنّنا اشترطنا الإيمان لدخول الجنّة، فلا تنافي بين هذا الإفتراض ودعوانا، إذ ليس من المحتوم دخولهم الجنّة، كما أنّه لا مانع من عدم دخولهم النّار، فيكون حيث شاء الله كما

---

(١) راجع أمالي الصدوق ص (٢٧١)، وبحار الأنوار (١٠٨/١٨).

(٢) راجع الكافي (١٨٨/٢)، وبحار الأنوار (٣١٥/٨).

تقدّم في الخبر الأخير، فقد حرّم الله تعالى النّار على الباكين على الإمام الحسين عليه السلام كما هو ظاهر النصوص.

ويمكن أن نحمل وجوب دخول الجنّة على خصوص المؤمنين، وتحريم دخول النّار على الفاسقين، أمّا الكفّار فإنّهم يجازون في دار الدّنيا إذ ليس لهم من خَلاق يوم القيامة، ولا تصحّ عباداتهم ليُثابوا عليها يوم الجزاء، فيُعطيهم الله تعالى ما شاء من الخير في الدنيا.

سر الثواب الجزيل

من المثير بالفعل أن يكون للبكاء على مصائب أهل البيت عليهم السلام عموما والإمام الحسين عليه السلام خصوصاً كلّ هذا الثواب الكبير، وفحوى الأخبار الشريفة تفضليه على سائر العبادات والأعمال، ويعتقد أكثر من عارفٍ بعلوم أهل البيت عليهم السلام أن السّر هو كون الحزن والبكاء محقّق وجود محبّة أمير المؤمنين عليه السلام في قلوب المؤمنين، ومظهر خاص لتجلّي الولاية عند الموالي، وكاشف عن معرفة راقية بهم عليهم السلام قد انطوت عليها ضمائر الباكين.

ومن الثّابت في محلّه أنّه ليس في حبّهم وموالاتهم ومعرفتهم عذر لأحد، وقد افترض الله حبّ عليّ أمير المؤمنين عليه السلام على جميع أهل السماوات والأرضين، والله تعالى سائلهم عن ذلك يوم القيامة، وهذا من ضروريّات المذهب الحق، كما أنّه من ضروريّات الدين عند الإنصاف والترفّع عن العصبيّة المقيتة، وقد دلّت نصوص الأحاديث عند المسلمين على ذلك.

وروى الكراجكي في كنز الفوائد حديثاً يرفعه إلى سلمان الفارسي، قال: كنّا

عند النبي ﷺ في مسجده، إذ جاء أعرابي فسأله عن مسائل في الحج وغيره.

فلمّا أجابه قال له يا رسول الله، إن حجيج قومي ممّن شهد ذلك معك أخبرنا أنك قمت بعلي بن أبي طالب عليه السلام بعد قفولك من الحج، ووقفته بالشجرات من خم، فافترضت على المسلمين طاعته ومحبّته وأوجبت عليهم جميعاً ولايته، وقد أكثروا علينا من ذلك، فبيّن لنا يا رسول الله أ ذلك فريضة علينا من الأرض لما أدنته الرحم والصّهر منك، أم من الله افترضه علينا وأوجبه من السماء ؟

فقال النبي ﷺ : بل الله افترضه وأوجبه من السماء، وافترض ولايته على أهل السماوات وأهل الأرض جميعاً، يا أعرابي، إن جبرئيل عليه السلام هبط علي يوم الأحزاب وقال إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إني قد افترضت حب علي بن أبي طالب ومودّته على أهل السماوات وأهل الأرض فلم أعذر في محبته أحداً، فمُر أمّتك بحبّه، فمن أحبه فبحبّي وحبّك أحبّه، ومن أبغضه فببغضي وبغضك أبغضه، أما إنه ما أنزل الله تعالى كتابا ولا خلق خلقاً إلاّ وجعل له سيداً، فالقرآن سيد الكتب المنزلة، وشهر رمضان سيد الشهور، وليلة القدر سيّدة الليالي، والفردوس سيد الجنان، وبيت الله الحرام سيد البقاع، وجبرئيل عليه السلام سيّد الملائكة، وأنا سيد الأنبياء، وعلي سيد الأوصياء، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ولكل امرئ من عمله سيّد، وحبّي وحبّ علي بن أبي طالب سيد الأعمال، وما تقرب به المتقربون من طاعة ربهم.

يا أعرابي، إذا كان يوم القيامة نصب لإبراهيم منبر عن يمين العرش، ونصب لي منبر عن شمال العرش، ثم يدعى بكرسي عال يزهر نوراً فينصب بين المنبرين، فيكون إبراهيم على منبره، وأنا على منبري، ويكون أخي علي

على ذلك الكرسي، فما رأيت أحسن منه حبيباً بين خليلين، يا أعرابي، ما هبط علي جبرئيل عليه السلام إلاّ وسألني عن علي، ولا عرج إلاّ وقال: اقرأ على عليّ مني السلام[1].

ولا يشكّ مؤمن بعد ذلك أن حبّ علي أمير المؤمنين عليه السلام من أفضل العبادات والأعمال، كما لا يشكّ في أنّ الله تعالى لم يعذر أحداً في حبّه، فإذا كان حبّه كذلك فإنّ مظهر صدق حبّه يكون بهذه الدّرجة من الفضل، وطبيعيّ أن يعد الله سبحانه عليه جزيل الثواب.

فإذا تأمّلنا في قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لمولانا سيّد الشهداء عليه السلام: أنت عبرة كلّ مؤمن ومؤمنة يا ولدي، وإلى قول سيد الشهداء عليه السلام: أنا عبر كل مؤمن ومؤمنة يا أبتاه؟[2]

ظهر لنا أن المراد من سؤاله عليه السلام أبيه عليه السلام هو: هل أنا مظهر حبّ المؤمن لك؟ وهل أنا الحجّة والدليل على إيمانه وموالاته لك ؟ وهل الدّمعة عليّ كاشفة للتولّي لنا ؟ وظهر لنا أنّ جواب ذلك بالإيجاب قطعاً، وكم من سائل عن أمره وهو عالم !!

ومن هنا تتضح أمور أخرى جليلة، منها ترتّب الثواب على الدمعة ولو كانت بمقدار جناح البعوض أو جناح الذباب، فهي من المؤمن كاشفة عن جوهره النفيس، ومحقّقة لعنصره السامي، وهي تكفي لبلوغ أعلى رتب الأجر والثواب

---

(١) راجع كنز الفوائد (٢/٢٣٧)، وتأويل الآيات الظاهرة ص (٨٣)، وشواهد التنزيل (١/٤٦٣)، وبحار الأنوار (٤٠/٥٥)، ومثله في الجواهر السنيّة للحر العاملي ص (٣٠٣).

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٨)، وعنه بحار الأنوار (٤٤/٢٨٠).

لصدورها مع الولاية لأهل البيت عليهم السلام ..

ويتّضح بذلك وجه أفضلية البكاء لمصائبهم عليهم السلام على سائر العبادات والأعمال، فالبكاء المفضّل هو إنعكاس ولاية أهل البيت عليهم السلام على مرآة النفس الطيّبة.

وقد يُقال أنّ هذا تعسّفٌ وتحكّم، إذ أنّ البكاء مندوبٌ، وقد فضّلته على سائر العبادات والأعمال مطلقاً، وفإنّه قد يستقيم تفضيله على المندوبات، إلاّ أنّ العبادات والأعمال فيها الواجبات، فكيف تقدّم المندوب على الواجبات !!

ولدى التّحقيق نجد أنّ دعوى تفضيل الواجب على المندوب وكونه ذلك قاعدة كليّة لا تصمد أمام النقد الدّقيق، ولو كانت قاعدة كليّة عقلية لما تطرّق لها التخصيص، وقد تطرّق في أكثر من حكم وحكم.

فمسلّم معروف أن إنظار المعسر وإمهاله واجب، وإبراؤه مندوب، والثاني أفضل من الأول، ومسلّم أنّ ردّ السلام واجب، والإبتداء به مندوب، والثاني أفضل من الأوّل، وهكذا..

ولا يُتوهّم من ذلك التقليل من قيمة الواجبات التي عليها قوام الدين، كالصلاة التي إن قُبلت قُبل ما سواها وإن رُدّت رُدّ ما سواها، وكذا سائر العبادات والواجبات، خصوصاً وأن سيّد الشّهداء عليه السلام قُتل في سبيل الذبّ عن هذه الأحكام، لكنّ الصّلاة وسائر الواجبات لا تنفع إلاّ إذا حازت الشّرائط الظّاهرية والباطنيّة، وأعني بالظّاهرية شرائط الصّحة المذكورة في الكتب الفقهيّة، وأعني بالباطنيّة الموالاة لأهل البيت عليهم السلام، ويستحيل أن يستوفي المؤمن تلك الشرائط الظّاهرة والباطنة للعبادات إلاّ إذا كان من أهل

الحزن والبكاء عليهم عليهم السلام والزّائرين لقبورهم.

فمن اتّصف بنور الولاية اتصف بكواشفها، والحزن على مصائبهم عليهم السلام والبكاء عليهم وزيارة قبورهم من أوّل كواشف التولّي لهم، وهي مظاهر متقدّمة - عند النّظر الدقيق - على سائر العبادات في الفضل والثواب.

فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله في الخصال والعيون بإسناده إلى الفضل بن شاذان، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: لما أمر الله عز وجل إبراهيم أن يذبح مكان إبنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه تمنى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده، وأنه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه، ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعز ولده عليه بيده فيستحق بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب.

فأوحى الله عز وجل إليه: يا إبراهيم، من أحب خلقي إليك ؟ فقال: يا ربّ ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ من حبيبك محمّد. فأوحى الله إليه: أ فهو أحب إليك أم نفسك ؟ قال: بل هو أحب إلي من نفسي. قال: فولده أحبّ إليك أم ولدك ؟ قال: بل ولده..

قال: فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أو ذبح ولدك بيدك في طاعتي ؟ قال: يا رب، بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي.

قال: يا إبراهيم، فإن طائفة تزعم أنّها من أمة محمد ستقتل الحسين ابنه من بعده ظلما وعدواناً كما يذبح الكبش ويستوجبون بذلك سخطي، فجزع إبراهيم لذلك وتوجّع قلبه، وأقبل يبكي.

فأوحى الله عز وجل: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو

ذبحته بيدك بجزعك على الحسين وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1].

فمهما أتى المؤمن الكامل بعباداته على الوجه الأتم بشّرائطها الظّاهريّة والباطنيّة فإنّه لا يدّعي أنّ عبادته توازي ذبح الخليل عليه السلام ولده إسماعيل عليه السلام بيده فضلاً وثواباً، ومع هذا فإنّ مفاد الرواية يدل على أنّ الله تعالى أثاب نبي الله إبراهيم عليه السلام بجزعه على الإمام الحسين عليه السلام أكثر من مثوبته على ذبح ولده !!

هذا، ويمكن أن نقول أن الإمام المعصوم عليه السلام إذا نقل حكماً أو شبه حكم في أخبار الأنبياء السابقين عليهم السلام ولم يصرّح ببقاء الحكم وعدمه دلّنا ذلك على بقاء الحكم واستمراره، فأفضليّة الجزع في مصائب الإمام الحسين عليه السلام على سائر العبادات والأعمال الواجدة للشرائط أمر باق وجار في هذه الأمّة، وهو أفضل من أعمالنا عامّة ولو بلغت حدّ ذبح نبيّ ولده بيده بأمر الله تعالى.

البكاء والتباكي

نصّت النصوص الشريفة على استحباب التباكي، ورتّبت عليه نفس آثار البكاء، ويلجأ المؤمن إلى التباكي إذا تعسّر عليه البكاء وإسالة الدّمع، فيتشبّه بالباكي ويحاول أن يحاكيه مع استشعار حالته بهيَجان النفس واحتراق الفؤاد، فهو بكاءٌ متكلّف إن صحّ التّعبير، وهو أبعد ما يكون عن الرّياء أو التصنّع، لأنّه مقرونٌ بالتفجّع والتألّم على مصابهم عليهم السلام.

---

(١) راجع الخصال (١/٥٨)، وعيون أخبار الرضا (١/٢٠٩)، وبحار الأنوار (١٢/١٢٤) و (٤٤/٢٢٥)، وتأويل الآيات الظاهرة ص (٤٨)، وقصص الأنبياء للجزائري ص (١٢٦).

ومجموع النصوص دالٌّ على استحباب كلّ مظاهر الحزن المختلفة، ودالٌّ على إستحباب كلّ مصاديق الجزع على الإمام الحسين عليه السلام، وقد دلّت نصوص معنعنة مرويّة في الكافي والوسائل على خصوص التباكي، وأنّه قسيم البكاء في الأجر والثواب.. منها ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: إن لم تكن بك بكاء فتباك.

ورُوِيَ عنه عليه السلام أيضاً: إنّي أتباكى في الدّعاء وليس لي بكاء، قال: نعم، ولو مثل رأس الذباب[1].

والتباكي المطلوب يحمل على البكاء ويفضي إليه عادة، وداعيه عبادي كالبكاء تماماً، وهو بعيد عن الرياء الذي يبطل العمل، لأنّ الرياء يعني إشراك غير الله تعالى في العبادة والعمل، وأمّا التباكي فهو عملٌ مطلوبٌ في نفسه، وليس فيه إشراك أحد في العمل، ويمكن أن يقع الرياء من المتباكي كما يقع من الباكي، وكما يقع في سائر الأعمال.

وإذا افترضنا تنزّلاً - وهذا لا يصح - صدق الرياء عليه من جهة من الجهات فإنّه من مصاديقه المحمودة، سيّما إذا كان في مجالس سيّد الشهداء عليه السلام فإنّه باعث على تهيئة قلوب الحاضرين للحزن والبكاء، وسببٌ لإيقاد حرارة المصيبة في المجلس العام، وهذا عنوان - بحدّ ذاته - يرجّح التباكي..

فهو أشبه ما يكون بالصّدقة التي يتصدّق بها الإنسان علانية لتشجيع النّاس على العطاء وإفشاء عادة البذل والكرم في المجتمع ، ونيّة مراعاته الآخرين لا تبطل صدقته أو عمله قطعاً، أو هو أشبه بالكذب للإصلاح بين مؤمنين، والأمثال غير

---

(١) راجع الروايتين في الكافي (٤٨٣/٢)، ووسائل الشيعة (٧/٧).

عزيزة في هذا الصدد.

رفع الصوت بالبكاء

تحفّظ البعض في مسألة الصّياح ورفع الأصوات عند البكاء في المآتم، واعتبره خروجاً عن التحضّر والذّوق والعصرنة، حتّى أنّ بعض المثقّفين همس إليّ في بعض المجالس قائلاً: إنّ صياح الباكين ضجيجٌ ضوضائي!!

إلاّ أنّه لا تعنينا هذه الثقافة التي تستنكره استنكار تحريم، وربّما يستشهد بعضهم بالآية الشريفة من سورة لقمان: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾، وقد فات هؤلاء أنّها في مقام الإرشاد إلى الآداب ومحاسن الأخلاق، وليست في مقام تأسيس تكليف أو حكم إلزامي في هذه الأمّة.

هذا، وقد اقتضت بعض العبادات لزوم رفع الصوت كما هو الحال في الأذان والتلبية والصّلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي مزعجةٌ للبعض، وقد جاء في أحاديث صحيحة عنهم عليهم السلام: أنّ رفع الصوت بالصلاة على النبي يذهب النفاق[1].

كما ورد في بعض الروايات عنهم عليهم السلام: أنّ رفع الصوت بالأذان في المنزل ينفي الأمراض ويكثر الولد[2].

وقد اشتهر أن أمير المؤمنين عليه السلام ليلة شهادته اعتلى المئذنة، ووضع سبابتيه

---

(١) راجع ثواب الأعمال ص (١٩٠).

(٢) راجع المقنع للشيخ الصدوق ص (٢٧)، والجامع ليحيى بن سعد الحلي ص (٧٣)، والدّعوات للراوندي ص (١١٦).

في أذنيه، ثم أذّن، وكان إذا أذّن لا يبقى في الكوفة بيت إلاّ اخترقه صوته.

فإنّ الشّارع لما استحب رفع الصّوت في هذه الموارد لم يشترط كون الصّوت حسناً أو غير مستنكرٍ، وصياح المعزّين في مجالس الإمام الحسين عليه السلام ليس بأرفع من قول الحُجّاج: لبيك قطعاً، وليس كلّ حاج حسن الصوت، وهذا هو حال النّاس سواء رثوا أم لبّوا، ولا دليل على منع رفعه بحال.

لكنّ الكلام في صياح النّساء بمسمع الرجال في مجالس الإمام الحسين عليه السلام بحاجة إلى وقفة متأنّية رغم ثبوت عدم الإشكال فيه في نفسه، وتوهّم بعض حرمته فاحتجّ بالخبر المشهور على الألسن " صوت المرأة عورة " لكنّنا عند التحرّي نخلُص إلى حقيقة مهمّة، وهي أنّ مصادرنا المعتبرة خالية من هذا القول أصلاً، علاوة على أنّ بروز أصوات المعزّيات لا يتنافى مع قاعدة مستفادة من الأخبار المعمول بها.

ويتكرّر هذا الوهم والإحتجاج بالنبوي المنسوب، إلاّ أنّنا لم نعثر عليه في كتب الحديث أصلاً، غير أنّه ذُكر في بعض المتون الفقهية، كشرائع الإسلام، وقد ردّ عليه جملة شرّاح هذا الكتاب، وادّعى كاشف اللثام الإجماع عليه، إلاّ أنّ التّتبع يردّه، ولم يعتن المتأخّرون بنقله للإجماع في هذا الأمر.

أمّا صاحب الجواهر فقد ردّه بالسّيرة المستمرّة من العلماء والمتديّنين القائمة على خلافه، وبالمتواتر أو المعلوم من كلام الزهراء عليها السلام وبناتها بحضور الأجانب، ومن مخاطبة النساء للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام على وجه لا يمكن إحصاؤه، ولا تنزيله على الإضطرار لدين أو دنيا.

ثم قال: ولعلّه لذا وغيره صرّح جماعة كالكركي، والفاضل في المحكي عن

التذكرة وغيرهما ممّن تأخّر عنه كالمجلسي وغيره بجواز سماع صوتها، بل بملاحظة ذلك يحصل للفقيه القطع بالجواز[١].

نعم، ورد في أكثر من رواية أنّ النّساء عورة، كما في متن الرّواية التي رواها هشام عن الصادق عليه السلام: " النساء عي وعورة، فاستروا العورات بالبيوت، واستروا العيّ بالسكوت "[٢].

ولا ينبغي الخلط بين هذه الرّوايات وبين دعوى أنّ صوت المرأة عورة، فهذه الرّوايات صريحة في الأمر بالسّكوت لعيّها، لا لكونها عورة أو أن صوتها عورة، خصوصاً وقد صدر البكاء في الأخبار عن سيّدة النساء عليها السلام حتّى تأذّى منه أهل المدينة، كما في رواية الخصال، وظاهر هذا البكاء يفوق الحدّ الإعتيادي، وإلاّ لما أوجب قلق أعدائها، وقد روي أنّها عليها السلام في اليوم الثامن من وفاة أبيها خرجت وصرخت فتبادرت النساء، وخرجت الولائد والولدان، وضج الناس، وجاءوا من كل مكان، وأطفئت المصابيح، لكي لا تبين صفحات النساء[٣].

---

(١) راجع جواهر الكلام (٢٩/ ٩٨).

(٢) وهو لفظ مستفيض في روايات أهل البيت عليهم السلام، ففي الكافي (٥/ ٥٣٥) عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: النساء عيٌّ وعورة. وفي الفقيه (٣/ ٢٤٧) قريب منه، وفي أمالي الشيخ عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: النساء عيّ وعورات، فداووا عيّهن بالسكوت، وعوراتهنّ بالبيوت..

وفي الكافي (٥/ ٥٣٥) عن علي عليه السلام: لا تبدؤوا النساء بالسلام، ولا تدعوهنّ إلى الطعام، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: النساء عيّ وعورة، فاستروا عيّهن بالسكوت، واستروا عوراتهنّ بالبيوت.

(٣) راجع بحار الأنوار (٤٣/ ١٧٥)، وراجع لخبر بكائها وتأذّي أهل المدينة: الخصال للشيخ

ويُروى كذلك أنّ العقيلة زينب عليها السلام وسائر بنات أمير المؤمنين عليه السلام خرجن عند وفاته وجميع النساء، وقد شققن الجيوب، ولطمن الخدود، ووقعت الصيحة منهنّ، حتى جاء الناس يهرعون، وصاحوا صياحاً عظيماً، ارتجت له الكوفة بأهلها[1].

وأمثال هذه الحالات المرويّة غير عزيزة في وقائع يوم عاشوراء والطّف، فقد رويت متواترة في الكتب المعتبرة، وكان ذلك بحضور حجّة الله الإمام زين العابدين عليه السلام.

وغريب من بعد ذلك قول بعضهم: إنّه ولو افترضنا عدم تحريم الصياح في المآتم إلاّ أنّه يجب تنزيه المآتم عنه، لكونه معيباً شائناً، فإذ كان غير محرّم فما الوجه في وجوب تركه! ومعلومٌ أنّ غير المحرّم لا يجب تركه، وأيّ عيب أو شين في عمل أمر به الأئمة عليهم السلام وفعلوه! ولم يروه معيباً وشائناً!

نعم، المحرّم عند فقهائنا حرمة الإستماع لا غيره، خصوصاً مع التلذّذ والريبة، وبه قطع العلامة في التذكرة واستجوده الشّهيد الثاني وصاحبا الكفاية والمفاتيح وجلّ من تأخّر عنهم، أما التكلّم والسّماع بلا استماع من الرجل فليس بمحرم..

فالأخبار الصادرة عن الأئمة عليهم السلام وإن تضمّن بعضها النهي عن تكلم المرأة مع غير المَحرم عليها إلاّ أن أكثرها صريح بجوازه.

→

الصدوق (١/٢٧٣).

(١) راجع بحار الأنوار (٤/٢٩٣).

وجرت سيرة العلماء على التكلّم مع النساء من الصّدر الأول إلى زماننا بما يزيد على القدر الضروري، تبعاً لما تحقّق في السّيرة القطعية لأهل بيت العصمة عليهم السلام، وقد ورد في أكثر من خبر ثابت تكلّم النساء معهم عليهم السلام بمحضر أصحابهم بلا ضرورة، كخبر أبي بصير المروي في الكافي، قال: كنت جالساً عند أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت علينا أم خالد التي كان قطعها يوسف بن عمر، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيسرّك أن تسمع كلامها ؟

فقلت: نعم.. فأذن لها، وأجلسني معه على الطّنفسة، قال: ثم دخلت، فتكلّمت، فإذا هي امرأة بليغة[1].

وقد طفحت السيرة - كما تقدّم - بنياحة النّساء وبكائهنّ على حمزة بمسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل بأمره، والنياحة ليست بكاءً مجرداً مع الصوت فقط بل هي ندبة بمقاطيع من الشعر، تُلقيها النساء إنشاداً أو إنشاءً، وقد يتخلّل ذلك صياح وزعيق، كما قد يُعلم من صياح فاطمة الزّهراء عليها السلام على أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، وصياح بناتها يوم قتل أمير المؤمنين عليه السلام.

نعم، حرّم بعض فقهائنا صياح المرأة على الموتى، ولكن لا لأن صوتها عورة، بل لأنه داخل تحت عنوان الجزع المحرّم، وقد قدّمنا الخبر الصحيح الصريح عن أئمة الهدى عليهم السلام وأنهم قالوا: كل الجزع والبكاء مكروه، سوى الجزع والبكاء على الحسين عليه السلام[2].

---

(١) راجع الكافي (٨/١٠١).

(٢) تقدّم الخبر، وقد رواه الشيخ في الأمالي (١/١٦٢) عن معاوية بن وهب عن الصادق عليه السلام،

ومعلومٌ أنّ أغلب عزاء الشّيعة ومظاهر حزنهم مظهر من مظاهر الجزع المندوب، وإذا كان كذلك، فلا ضير في أن تتجاوز النساء حدّ الحزن المتعارف حالها حال الرّجال، أسوة بعيالات الحسين عليه السلام اللواتي روي عن بعضهنّ في المرسل الذي صحّحه بعض العلماء أنّها لما لاح لها رأسه، نطحت جبينها بمقدم المحمل حتى سال دمها[1].

فإنّ ذلك من باب الجزع المندوب على سيّد الشهداء عليه السلام وإن استلزم منه إيلام نفسها بصورة لا تؤدّي إلى الهلاك أو المرض، فلا يدلّ دليلٌ على حرمته إن كان بهذا القدر قطعاً، وقد ترقّت الأخبار إلى أكثر من هذا القدر أيضاً، فالظاهر

→

ونقله الحرّ العاملي في الوسائل (١٠/٣٩٥) عن الشيخ أيضاً، عن معاوية بن وهب في حديث: أنه عليه السلام قال لشيخ: أين أنت عن قبر جدي المظلوم الحسين عليه السلام ؟ قال: إني لقريب منه. قال: كيف إتيانك له ؟ قال: إني لآتيه وأكثر، قال عليه السلام: ذاك دم يطلب الله به، ثم قال: كل الجزع والبكاء مكروه، ما خلا الجزع والبكاء لقتل الحسين.

وروى ابن قولويه في الكامل ص (١٠٠) عن أبيه، عن سعد، مسنداً إلى أبي حمزة عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين عليه السلام فإنه فيه مأجور.

وفي خبر مسمع عن الصادق عليه السلام: أما إنك من الذين يعدّون من أهل الجزع لنا. كامل الزيارات ص (١٠١).

وفي ما رواه الشيخ في المصباح ص (٧١٤) مسنداً عن أبي جعفر عليه السلام في من يزور الحسين عن بعد في يوم عاشوراء: ويقيم في داره المصيبة بإظهار الجزع عليه.

(١) راجع بحار الأنوار (٤٥/١١٤)، وعوالم العلوم (١٧/٣٧٣)، والمنتخب للشيخ الطريحي (٢/٤٦٤) المجلس (١٠).

من الأخبار جواز الهلع أيضاً، وهو - بحسب اللغة - أفحش الجزع وأشدّه، والذي عليه نصّ خبر قدامة بن زائدة - وقد تقدّم - أن الإمام السّجاد عليه السلام قد صدر منه الهلع في قوله عليه السلام لعمّته: كيف لا أجزع وأهلع !! وقد أرى أبي وعمومتي وولد عمي صرعى لا يوارون، وقد روى المؤرّخون في إحدى صور هلعه أنّه عليه السلام كان إذا أخذ إناءً ليشرب يبكي حتى يملأه دمعاً[1].

ولو قال قائل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الرنّة في المصيبة، وورد أنّه " من أقام النواحة فقد ترك الصّبر " وورد مستفيضاً النّهي عن دعاء المرأة بالويل والثبور عند المصيبة، والأخذ بإطلاق هذه المضامين يحرّم على النساء رفع أصواتهنّ في عزاء الإمام الحسين عليه السلام.

فإنّا نقول أنّ الحرمة مختصّة بالنياحة والصّراخ على غير الإمام الحسين عليه السلام، وقد دلّت أخبار استحباب البكاء والجزع على هذا المطلب، ولا شكّ في أنّ الصياح عليه بهذا النحو شكل من أشكال الجزع المندوب، فلا يمكن إقامة أي دليل يدلّ على تحريم صياح النساء في المآتم الحسينية.

وقد قال صاحب الحدائق رحمه الله:

أنّ ظاهر أكثر الأصحاب الإعراض عن تلك الأخبار - أي أخبار النهي عن

---

(١) لقد تواترت النصوص في مسألة بكاء الإمام السجاد عليه السلام بشكل كبير، ونقل هذا الخبر وغيره في مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب، ونقله عنه في بحار الأنوار، وفي جلاء العيون، وتجدر الإشارة إلى أنّ النّص الموجود في النسخ المطبوعة من البحار والمناقب وجلاء العيون أن الإناء كان يمتلأ دمعاً وليس دماً، خلافاً لبعض الكتب المتأخّرة التي تذكر لفظ الدّم نقلاً عن نفس المصادر.

الرنّة والنائحة وأمثال ذلك - وتأويلها، وحملها على محمل آخر، كاشتمالها على شيء من المناهي أو الباطل، فإن القول بالتحريم مذهب كثير من أصحاب الحديث من الجمهور، وهو مردودٌ، وذكر نقلاً عن الجمهور - كما في المغني لإبن قدامة - أنّ الزّهراء عليها السلام قالت: يا أبتاه، من ربّه ما أدناه، يا أبتاه إلى جبرئيل أنعاه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه[1].

وقد ذكر العلاّمة الشيخ الحلّي رحمه الله في شعائره وجوه الإعراض عن تلك المرويّات، فقال:

أولاً: بأن ذلك لا يقتضي إلاّ حرمة نفس الصّراخ، لا حرمة المآتم والتمثيلات التي يقع فيها ذلك، لأنه من الأمور الخارجة عن المآتم والتمثيل المقارنة لهما، والمحرّم الخارج المقارن لا يقتضي بوجه حرمة ما يقارنه..

وقد روى في الكافي صحيحاً عن زرارة قال: حضر أبو جعفر عليه السلام جنازة رجل من قريش، وأنا معه، وكان في الناس عطاء، فصرخت صارخة، فقال عطاء: لتسكتنّ أو لنرجعنّ، فلم تسكت، فرجع عطاء. فقلت لأبي جعفر عليه السلام: إن عطاء رجع لمكان صراخ الصارخة، فقال: امض بنا، فلو أنّا إذا رأينا شيئاً من الباطل مع الحق، تركنا له الحق، لم نقض حق مسلم[2].

---

(١) راجع الحدائق النّاضرة للفقيه المحدّث الشيخ يوسف البحراني رحمه الله في باب أحكام الموتى من كتاب الطهارة (١٦٨/٤).

(٢) راجع الحديث في الكافي (١٧١/٣ - ١٧٢)، ونقل في الوسائل (٨١٨/٢) في أبواب تشييع الجنازة، وعطاء المذكور في الخبر كان من كبار بني أمية ومفتي بلاطهم.

وهذا من وضوح الدلالة على ما أشرنا إليه، بحيث لا يحتاج إلى تقريب.

وثانياً: بأن الصياح والصراخ إنما يكره أو يحرم على غير الحسين عليه السلام، وأما عليه فلا حرمة ولا كراهة، لأنه من مظاهر الجزع عليه وهو مندوب إليه، كيف وأعظم المعدودات في تحديد الجزع هو لطم الوجه والصدر والنواحة، وهذه الأخيرة مما طفحت الأخبار باستحبابها، وإلاّ لزم سد المآتم عامة.

أما لطم الخد فضلاً عن الصدر فقد دل على جوازه خبر خالد بن سدير عن الصادق عليه السلام، وفيه: ولقد شققن الجيوب، ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي عليه السلام وعلى مثله تلطم الخدود وتشقّ الجيوب[1].

هذا مضافاً إلى إطلاق قول الحجة عليه السلام في دعاء الندبة: فعلى الأطايب من أهل بيت محمد وعلي فليبك الباكون، وإيّاهم فلينـدب النادبون، ولمثلهم فلتذرف الدموع، وليصرخ الصارخون، ويضجّ الضاجّون، ويعجّ العاجّون[2].

وفي حديث معاوية بن وهب عن الإمام الصادق عليه السلام: اللّهمّ ارحم تلك الصرخة التي كانت لنا[3].

قال في القاموس: الصرخة الصيحة الشديدة.

وثالثاً: بأن هذه الشعائر العزائية التي يقع فيها صياح النساء بمسمع من

---

(١) راجع ما رواه الشيخ في التهذيب (٣٢٥/٨) عن خالد بن سدير.

(٢) راجع إقبال الأعمال ص (٢٩٥).

(٣) راجع كامل الزيارات ص (١١٧).

الرجال الأجانب قد عقدها الأئمة عليهم السلام في دورهم وأمروا بها، فقد روى الصّدوق في العيون أن دعبل بن علي لما أنشد الرضا عليه السلام تائيته المشهورة وانتهى إلى قوله:

أَ فاطمُ لو خلتِ الحسينَ مُجدّلاً وقد ماتَ عطشاناً بشطِّ فراتِ
إذاً لِلطمتِ الخدَّ فاطمُ عندَهُ وأجريتِ دمعَ العينِ في الوجناتِ

لطمت النساء، وعلا صراخ من وراء الستر، وبكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً حتى أغمي عليه مرتين[1].

ورَوَى أبو الفرج بسند معتبر:

أنه لما دخل السيد الحميري على الصادق عليه السلام، أقعد حرمه خلف الستر، ثم استنشده في رثاء جده الحسين عليه السلام فأنشده أبيات كثيرة قال - يعني راوي الحديث: فرأيت دموع جعفر تنحدر على خديه، وارتفع الصراخ من داره حتى أمره بالإمساك، فأمسك[2].

وتعدّدت هذه المآتم التي تصرخ فيها النساء بمسمع من الإمام الصادق عليه السلام في ما يبدو، ورويت في غير قصة الحميري، وفي بعضها: فبكى الصادق عليه السلام وتهايج النساء، وتارة: فلما انتهيت بالإنشاد إلى.. صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه.

ورُوِيَ في كامل الزّيارات عن أبي هارون المكفوف أنّه أنشد الإمام الصّادق

(١) سوف يأتيك الخبر مفصّلاً قريباً.
(٢) راجع الأغاني (٧/٧).

عليه السلام فبكى، واستزاد فأنشده، فبكى وتهايج النساء[١].

ورَوِي فيه بإسناده إلى عبد الله بن غالب قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فأنشدته مرثية الحسين بن علي، فلما انتهيت إلى هذا الموضع:

فيا ليلةً تسقو حسيناً بمسقاةِ الثّرى عفرَ التّرابِ

صاحت باكية من وراء الستر: يا أبتاه[٢].

---

(١) راجع كامل الزيارات ص (١٠٥ - ١٠٦)، وسيأتي الخبر في رمّته في الحديث عن الإنشاد.

(٢) راجع كامل الزيارات ص (١٠٦)، والروايات كثيرة في هذا الصّدد.

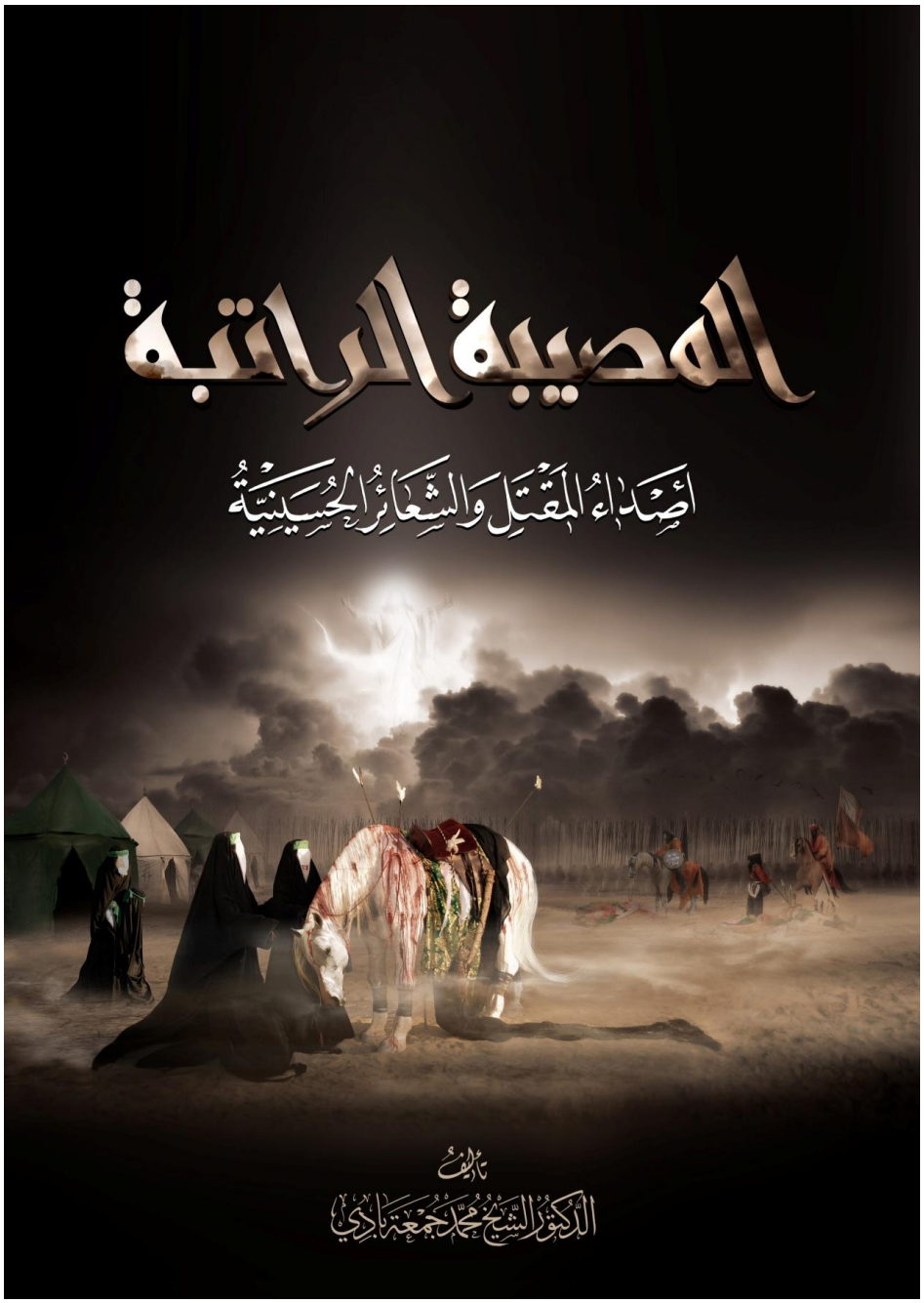
المصيبة الراتبة
أصداء المقتل والشعائر الحسينية
تأليف
الدكتور الشيخ محمد جمعة بادي